

وكان من سوء الحظ أن تدخل المعتزلة في السياسة ولم يقتصروا على الدين، والسياسة دائماً شائكة، فنصرهم على ذلك المأمون والواثق والمعتصم، وامتحنوا الناس وأكروهوهم على الاعتزال، فكرهم العامة واستبطلوا الامام ابن حنبل الذي وقف في وجههم، فلما جاء المتوكل انتصر للرأي العام ضدهم، وانتصر للامام أحمد ابن حنبل على الجاحظ وابن أبي دؤاد وأمثالهما، ونكل بهم تنكيلاً شديداً، فبعد أن كان يتظاهر الرجل بأنه معتزلي، كان الرجل يعتزل ويختفي حتى عد جريئاً كل الجراءة الزمخشري الذي كان يتظاهر بالاعتزال ويؤلف فيه، ولم يكن له كل هذا الفضل، لأنه أتى بعد هدوء الفورة التي حدثت ضد الاعتزال. فلننتصر الآن ماذا كان يكون لو سار المسلمون على منهج الاعتزال إلى اليوم؟! أظن أن مذهب الشك والتجربة واليقين بعد هما كان يكون قد ربي وترعرع ونضج في غضون الألف السنة التي مرت عليه، وكنا نفضل الأوروبيين في فخفتهم وطننتهم بالشك والتجربة التي ينسبونها إلى بيكن مع أنه لم يعمل أكثر من بسط مذهب المعتزلة. وكان هذا الشك وهذه التجربة مما يؤدي حتماً إلى الاختراع وبدل تأخر الاختراع إلى ما بعد بيكن وديكارت؛ كان يتقدم مئات من السنين، وكان العالم قد وصل إلى ما لم يصل إليه إلى اليوم، وكان وصوله على يد المسلمين لا على يد الغربيين، وكان لايموت خلق الابتكار في الشرق ويقتصر على الغرب، فقد عهدنا المسلمين بفضل منهج المحدثين يقتصرون على جمع متفرق أو تفريق مجتمع، وقل أن نجد مبتكرًا كابن خلدون الذي كانت له مدرسة خاصة، تلاميذها الغربيون والشرقيون. فالحق أن خسارة المسلمين بإزالة المعتزلة من الوجود كانت خسارة كبرى لاتعوض. ثم بدأ المسلمون ينهجون منهج الحضارة الغربية تقليداً من الخارج لا بعثاً من الداخل، وشتان ما بينهما، فالتقليد للخارج بثّ فيهم ما يسميه علماء النفس مركب النقص، فهم يرون أنهم عالة على الغربيين في منهجهم، ولو كان من أنفسهم لاعتزوا به وافتخروا، ولكن ما قُدر لا بد أن يكون. وفي خلقه شئون؟